

(الفصل الثامن)

لا نظن القاري، يجهل الآن الغريب في زي الاعراب المعروف بابي السلة والفتاة المثيمة معه . ولكنه يتوقع شيئاً من اخباره قبل مجيئه الى طبريا ومن قصة الفتاة بعد ان ألقيت في السجن . فان تلك الدعوى دعواها كمثل الكثير من الدعاوي التي تسمع في معاكم البلاد تخفى حقيقتها على رجال الشحنة والنضاة . أو انها تخفى عمداً وعدواناً حباً بكسب ، أو ارضاءً لصاحب نفوذ ، أو تزلفاً لذي امر ، فيبرأ مذنب ، ويؤتم برى ، ولا يذنب الحق والعدل في كلا الحالتين غير الحكومة الاثيمة .

واننا لنسرد الآن ايجازاً خبر القضية التي ألست بيت مباركة عاراً لا تدثره الايام ، واقامت رجال الحكومة واقدمتهم ، وأشغلت القس جبرائيل عن نضومه الرهبان ، واضطرت في نهاية الامر الى ان يخرج من الدير ما كادت تشرق الشمس على تلك الجريمة حتى ضجت الناصرة باخبارها وتعددت حسب العادة في مثل هذه الحوادث الاشاعات . فمن الناس من قال ، ان يوسف مبارك قتل ابن عمه غيرة على عرضه . ومنهم من قال ، ان مريم سبب الجريمة والست هند مرتكبها . ومنهم من اشاع ، ان للرهبان اصدقاء الست هند يداً فيها . وما احد ذكر عارفاً ، بخير او بشر . ذلك لان الشاب كان متغيباً معظم الوقت عن البلد ولم يخطر أمره في بال احد من الناس اذا استثنينا المدعي العمومي .

ولما نفي الخبر الى القس جبرائيل صباح ذلك اليوم هرول الى بيت اخيه

— قد يكون علم ان هناك فتاة — قسيس افندي ابن حرام — الله يوققه —
اشرب - اشرب .

اما القسيس فبات بعد ذلك يراقب الغريب فلما شاهده في اصيل اليوم
التالي ذاهباً الى طبريا سار تواء الى البيت الذي اهداه احمد اليه فالتقى قدام
الباب بفنائه مشحوبة اللون ثقيلة الحركة عيناها ذابلتان والكآبة بادية في
وجهها . فالتقى اليها السلام فردته واجفة .

— كأنتي عرفت الرجل المقيم معك يا بنتي فجئت اتحقق ذلك
— وماذا تريد ؟

— لا شيء سوى التعرف والالفة انا غريب هنا أليف الضجر
فجزعت الفتاة وهمت بالدخول الى البيت

— لا تخافي يا بنتي . فقد اكون متطفلاً ولكن الغريب الى الزعيم
نسيب . من هو الرجل المقيم معك ؟

— ابي

— هذا ما ظننته . ومن اين اتيتم .

— من الكرك .

— واسم ابوك

فلفقت الفتاة اسماً ثم قالت — تفضل زورنا عندما يكون ابي هنا . ودخلت
البيت واقفلت الباب . فعاد القسيس وهو حائر في تصرف المرأة شككاً
في قولها .

وبينما هو عائده الى غرفته في الحمام ألتقى بالغريب في الطريق فتبادل
الاثنيان نظرة سريعة وكل منهما سائر في سبيله ثم التفت الغريب كأنه يريد
ان يتحقق ظناً فقرأى القسيس واقفاً يلتفت اليه .

— هو هو بعينه . نبذ الثوب وتزوج . سبحانك يا رب .

وفطن القسيس اذ ذاك الى تلك المقاتلة في لبنان وتذكر السوءات التي
سناها . فقال في نفسه — الاوفق الا يعلم بوجودي هنا
اما الغريب فلما وصل الى البيت اخبرته الامراة بزيارة القسيس
وسوءاله عنهما .

فرفع يده الى جبينه متبحراً — هو بعينه — هو القس بولس عمون ذلك
العالم الفيلسوف الذي قابلته في لبنان . وهذه الورقة التي عثرت بها عند
الحمامات لا شك انها من اوراقه . ثم قرأ فيها ثانية —

« كلما فكرت بالماضي ماضي حياتي يتقبض قلبي . اجعل الاسرار
الدينية سر الاعتراف ... لولاك يا ربي لمن يعترف المجرم الاثيم »

ثم قرأ ما كتب في الجهة الثانية وقال — ليس هنا احد يحسن مثل خدم
الاشياء ويكتبها . والاعتراف ! الحق معه لمن يعترف المجرم الاثيم لولاك
يا رب ؟

وبات الغريب حائراً باثراً تلك الليلة يفكر بالقس بولس عمون وبابلياس
البلان . واستيقظ صباحاً وجاء الى الحمامات ليقابله فقيل له ان القسيس
سافر مساء البارح .

يستطلع الحقيقه ، وكان يوسف افندي قد استنطق المشيه لطيفه ، فاخبرته
بعد كثير التردد بما شاهدت ، فاخبر اخاه القسيس وسأله رأيه في تلك المجننه
السوداء ، وليس يوسف مبارك أباً رومانياً ليجلس في كرسي القضاة
فيحكم على ابنه المذنب بالسجن او الموت ، وانما الضعف البشري والحنان
الابوي سؤلأله الكذب ، فقال ، ان عارفاً كان غائباً ليلة ارتكبت الجريمة
ولم يزل ، فواقفه القسيس في ذلك على شرط ان يساعد في خلاص الفتاة
المتهمه زوراً وظلماً .

ثم ذهب القسيس الى السجن مقابل مريم وسألها ان تصدقه الخبر ، فقالت
انها لا تعلم شيئاً ، واصرت على انكارها ، وكان الملح قد استولى على الفتاة
فأعست قليلة الكلام ، كثيرة الاوهام ، على انها لم تغير من قصصها مثقالاً
ذرة ولم تقر ابداً بما كانت تعلم ، قالت انها لا تدري من القاتل ، ولم تعلم
غير ذلك ، واقسمت يديها للقس جبرائيل انها بريئة .

وظلت الفتاة اربعة اشهر في السجن تقاسي من العذاب من آلام ظاهرة ،
والآلام خفية ، زشما تبحث الحكومة وتحقق في الدعوى
وقد قيل ان المدعي العمومي اظهر في الاجراءات من اصابة الرأي ،
ومهاراة الذيل ، وعفة النفس ما قلما شاهده أبناء الناصرة في امثاله . كيف لا
وقد استنطق بيت مبارك كلهم من الست هند الجليلة حتى المشيه ، هذا
ما عرفه الناس وقد فاتهم ان يوسف افندي وكلماته كانت تحرك في كل
هذي الاجراءات قلم المدعي العمومي ولسانه .

وقد شهد يوسف افندي نفسه انه ساعة ارتكبت الجريمة كان نائماً وان ابنه عارفاً غائب منذ اسابيع ، وانه لم ير ساعة جاء يلبي صراخ الخادمتين غير الفتاة مريم في غرفتها والخزنة تحت السطح . وكذلك شهدت الست هند والخادمة ظريفة . اما العشي فقالت تزيد على ذلك ، انها حين فصح شباك غرفتها رأت رجلاً لابساً رداء اسود يسحب الخزنة من غرفة مريم ويوميها تحت السطح ، ولكنها لم تر وجهه .

ثم جاء المستنطق والقائم مقام الى موقع الجريمة يفحصان المكان ويدققان النظر في هيئته وشكله . فوجد المستنطق ان للسطح درجاً من الحجر يصل الى نصف الحائط فيظل بين آخر درجة منه والارض علو مقداره اربعة اذرع يستطيع ان يثب اليها اي كان من الرجال .

قال المستنطق وقد انجلي له الامر وانكشف السر ، ان الجاني تسلق هذا الجدار الى هذا الدرج الى هذا السطح واتخذ بعد ارتكابه الجريمة ذات الطريق هارباً . فاسر اليه اذ ذاك القائم مقام ما يعرفه بنفسه من تردد الرهبان على بيت يوسف افندي وانشغال قلب احدهم بحب مريم . فسكت المستنطق اذ ذاك ووقف الاجراً والاستقصاء .

اما مريم فلم تكن لتتربى بما جرى لها في بيت مبارك وانكرت انها نجس احداً في البيت او في المدينة او ان احداً في البيت او في المدينة يعبها . الا ان الست هنداً ألقت نظر المستنطق الى القصر جبرائيل قائلة انه هو المفتاح الوحيد لقب مريم . وقد يكون المغربي على قتل ايوب مبارك . لان الفتاة

تشكو اليه الصغير والكبير من امرها دائماً . وشد ما كانت شناعة الرهبان
 وشد ما كان سرورهم لما استدعي القس جبرائيل الى سراي الحكومة
 ليستنطق مثل سائر الناس . فامثل القسيس امر المدعي العمومي وبعد ان
 اجابه على سوء الاته كلها زار مريم في السجن وعرفها مطمئناً ان ما تقوله
 في كرسي الاعتراف لا يطلع عليه غير الله والكاهن . فاعترفت له بكل
 شيء . - بفعلات اخيه وتحجب ابن اخيه لما وبقتله ايوب مبارك وباعتصابه
 اياها وجعلت اذ ذلك تبكي فاتبه القسيس الى حالتها وجاء بعد ان عرفها
 يسأل القاضى الاسراع في استماع دعواها لان الفتاة حامل . وقد ترتكب
 الحكومة جريمة لا تغفر اذا داومت التأجيل من اسبوع الى اسبوع ومن
 يوم الى يوم .

وفي اوراق التحقيق التي رفعتها المدعي العمومي الى المحكمة ويوسف
 افندي عضو من اعضائها قال : انه بعد طویل البحث والتحقيق والاستقصاء
 ظهر ان القتل مخطط في ظهره ثلاث طعنات بخنجر وجد مرمياً على الارض !
 - وهذا ، وأيم الله ، يستوجب طویل البحث والاستقصاء . - وان رأسه
 مكسور من صندوق الزهور الذي وقع فوقه - وهذه من اكتشافات المدعي
 العمومي التبر الذهن الذكي الفؤاد - وان الطعنات في ظهره وحدها لم
 تسبب الموت - هنياً لحكومة عالمنا علماء اطباء قهفاء ! - فلو فرغ ان
 الفتاة قاتلة ايوب مبارك فليست هي التي رمته تحت السطع ، والمشيئة لطيفة
 تشهد على ذلك . والمدعى عليها تقول ايضاً انها لما كانت في قبضة ايوب مبارك

رأت رجلاً بطمنه في ظهره فהלح قلبها وأغمي عليها فلم تر غير ذلك .
 فلو فرض أنها هي القاتلة فينبغي أن يكون لها شريك في الجريمة . وحكم
 المصحف الشريف في سورة يوسف يضح في هذه القضية - وهذا منتهى
 الذكاء والبراعة في تحقيق المدعي العمومي - إذا كان قميصه 'قد' من
 قبل فصدقت وإن كان قميصه 'قد' من دبر فكذبت وهو من الصادقين -
 واقتيل طمن من دبر ساعة كانت الفتاة مريم في قبضة يده وهو فوق
 ذلك طويل القامة فلو فرض أن الفتاة هي الطاعنة تلك الطعنات لوجب
 أن تكون الطعنات في أسفل ظهره لا بين كتفيه . ذميا تحقق من موقع
 الجريمة إذا ومن شهادات الشهود يستدل أن رجلاً ، وقد يكون لصاً ، تسلق
 الجدار إلى الدرج ومنه إلى السطح قصد السرقة - لينأى العدل بآريابه ! - فلما
 رآه أيوب مبارك قبض عليه فطمن اللص أيوب تلك الطعنات ورماه تحت
 السطح وفر هارباً ١٠٠ !

وبناء على ذلك برأت المحكمة مريم واطلقت سراحها ، ووقفت الأجراء
 في الدعوى لفلنهما أن المجرم راعب لا لص كما ادعى المدعي العمومي النير
 الذهن الذكي القواد .

وبرأ الناس أيضاً مريم ولكنهم لم يبرأوا بيت مبارك . فكانوا إذا ذكروا
 الحادثة يقولون - « يا للمار ! » حائقين ولم يقل واحد منهم - « يا حرام ! »
 آسفاً .

واضطر يوسف أفندي أن يسافر إلى سوريا عرباً من سهام الرأي العام

وتخفيفاً لمضض اللام التي اصابته من هذه الفاجعة ورغبته بالاجتماع بابنه عارف ليطلعه على ما جرى ويعود به الى البيت

انا الست هند فلم تفتأ ان تشر الأكاذيب عن سلفها القسيس وتستغل سرّاً وجهرّاً في نفية من الدير . وان الاهتمام الذي اظهره في هذه الفاجعة لما يحقق ظنون بعض الناس ويثبت حجة الرهبان عليه . وكذلك كان . فتأثر الرأي العام عليه وصار اذا مشى في اسواق البلد يشار اليه بالبنان - هذا مخلص مريم وابوها ! - واذا اقام في الدير لا يسمع ما هو أخف من ذلك وقصاً على اذنه وقلبه .

وقد حار القسيس في امر مريم لما خرجت من السجن وحالتها تشير الى ما هي فيه . فابن يذهب بامرأة حامل ؟ الى من يأخذها وهي اليوم لا تستطيع الخدمة ، بل هي في حاجة الى من يخدمها ؟ جاء بها الى الدير فأنزلها في غرفة هناك ريثما يفكر في امرها وفي مصيره . فهاجت عليه خواطر الرهبان وتهديدوه والفتاة بالطرده .

ولقد طالما قال - الزهد في الاديرة أضحوكة سفية - خداع وضعف وحين وخيانة . والنسك في الاديرة تعذيب على اسم الله القدوس وها قد حان الوقت ليعمل بقوله . فوطن النفس على الرحيل ومريم ليخلصها مما هي فيه ، لينقذها من عار يكتنفها ، ليكون لها عوناً في محنتها جرّها هو عليها ان ادخلها خادمة في بيت اخيه . فجاء بها الى شاطئ البحيرة مستكراً في زبي العريان ليظل بعيداً عن الناس غريباً واستأجر بيتاً خارج

الحمامات عند مقابر علماء اسرائيل . فاقام واياها فيه وهو يقول - سأبني
قرب البئر صومعتي وسأحرق الجبل والدلو . سأقيم عند الماء وأعف عنها .
هذا هو النسك الحقيقي . هذا هو الزهد المقدس

ومع انه اقدم على ذا العمل الخطير ثابت القدم ، جرى القلب ، قلم يشأ
ان يطول أوانه . ويذكر القاري انه عند وصوله الى تلك الناحية سافر مع
محمود البحري الى تلحوم لغرض جوهرى يختص بمريم ، فان له في سهل
الغوير بيتاً ويمض املك . ولم يشأ ان تقيم الفتاة هناك وهي في حالتها
العاصرة . فبعث احد اجرائه الى حينئذ بكتاب الى عارف ابن اخيه يشوره
فيه براءة مريم ويسأله ان يوافيه حالاً الى البيت في سهل الغوير

(الفصل التاسع)

- ولكنه لطيف كريم ، يا امي . وعدني بيت ومريس اذا قبلت نصيحتي
واصلحت حالي وتدمت على خطاياي

- هل هو كاهن نصراني ؟

- لا هو رجل غني . له املك في جهة تلحوم وعنده اجراء . ويريد
ان اقيم هناك معهم فاخدم في بيته ويزوجني بشاب ظريف ابن احد اجرائه

- مالك وهذا التافق . هو خداع منافق مثل سائر الرجال . كم
يدفع اجرتك في الاسبوع ؟

- مجيديين

- مجيديين فقط ؟ اطلبي منه اربعة مجيدييات . يدفعها . وحق الله اذا

كان يحبك يدفعها . وابتني معه الى ان يسافر الى بلاده ، ثم عودي الى
شغلك ، ولا تفرك ثلثيقاته . من يعيشني اذا بعدت عني وانا الان مريضة .
وافرضي انني شفيت غداً فلا احد يلتفت الي . ولت ايامي ، يا بنتي ، كبرت
وشبت من الويل والشقاء . ألا ترين كيف هجرنا ذاك اللعين ابو هذا
المولد . لا عاشت الاولاد ، ولا عاش الرجال !

وكان الطفل اذ ذاك نالماً فاستفاق وجعل يبكي ، فجذبته بعنف اليها
ودقت برأسه على صدرها وهي تقول - ارضع ترضع السم . ارضع ترضع
البلاء . سأرميك في البحيرة يوماً ما وارناخ منك ومن بذرة ابيك . هاتي
الابريق ، يا هيلانة احسن ان في جوفي اتون نار . آه ما احلى الموت ! هنيئاً
للموتى !

- انت دائماً يائسة ، يا امي . ويحق لك ان تفرحي اليوم
- نعم ، يا بنتي . الحبة التي نحن فيها تفرح القلب . اسمعي ألم تقولي
لي ان المرأة التي مع هذا الرجل حبلى ؟
- بلى .

- ارجعي اذاً الى بيتي ، وابتني عنده الى ان تلد فاخبرك بعدئذ ما تفعلين .
واطلبي منه اربعة مجيديات كل اسبوع . أفهمت ؟ اواه ! امين جمالي يخدمني
الان ؟ فاني الان اعرف كيف انتفع به - كفاك ، كفاك يا ابن الستين كلب !
قطعت ثديي . حس ! لا تبتك . لا تبتك - الابريق يا هيلانه ! احترق قلبي
والله . احترق كبدي - أفهمت ما قلت لك ؟ اطلبي منه اربعة مجيديات

كل اسبوع . وهيبه البيت والعريس .

— وربما كان هو العريس بنفسه . والله ، يا امي ، هو « شلبي » وكريم
ولطيف وغني . احبه والله احبه .

— الله يعمي قلبك . حمارة . دابة . ماذا يريد الرجل من بنت الهوى ؟
زواجها ؟ لم تزالي بسيطة يا هيلانة . يتمتع بك ويتركك مثل ما تركني
ذاك النذل . الله يبليه بالبرص . الله يبليه بالطاعون . أتعرفين ما كنت
اصنع لو كنت اليوم صبية جميلة ، يا بنتي ؟ اعطيني الابريق — لو كنت
اليوم صبية جميلة لبنيت عليّ شاطئ . البعجرة اكرسها للفروم والموت
فامس فيها حياة الرجال واجعلهم بعد ذلك طمعاً للاسماك . اواه ! روحي
الى شغلك يا بنتي . اعطي وانسي ! ولكن لا تنسي ان تطلي من معلمك
اربعة مجديات .

وعادت هيلانة الى بيت القس جبرائيل لا تعرف باي نصيحة تنصح —
أبنصيحة امها ام بنصيحة الغريب سيدها ؟ ولكنها استسلمت الى التقادير
وظلت تخدم القسيس ورفيقتة شهرين فتطبخ وتسل الثياب وتجيء الى
البلد تقضي حاجاتها وتبتاع لها زاداً . وكانت ترافقهما في نزهاتهما ايضاً .
اكانها تقيم معهما رفيقة لا خادمة . وكان سيدها يحسن اليها ويرشدها
ويعاملها ومريم معاملة واحدة .

ولم تكن مريم لترضى بذلك . فازداد غمها واحتدمت نار الفيرة في
موقد أحزانها فنفرت من هيلانة ونم تمالك نفسها فاخذت تحسن لها الكلام

وتسبي، معاملتها . وكانت هيلانه اذا حدثت مريم تكثر من ذكر الرجال .
وتردد بعض اقوال امها البذيئة .

— قلت لك مائة مرة لا ترددي على مسعبي مثل هذا الكلام .

— لا تواءم اخذيني . ولكن مثلك لا تشعشع من ذكر الرجال

— سدي فمك

— امرك يا معلمتي . ولكني طالبة الافادة . سمعت الناس يقولون انك

زوجة معلمي ولست ابنته .

— هذا لا يعينك يا هيلانه .

— بلى يا معلمتي . هذا يهمني . فاذا كنت زوجه لا افسد والله بينكما .

بل اعود الى بيتي . الى شغلي

— وما معنى كلامك ؟

— معنى كلامي اذا كنت زوجه معلمي فرزقي اذا على الله . ولو

احبتي فانا لا افقن بينكما .

فلم تتمالك مريم ان ضحككت . فشجعت هيلانه وتعمادت بمثل ذا الحديث

فاسكتتها مريم وضربها .

فشكتها الى القس جبرائيل فغضب خاطرهما ونصح لمريم ان تعاملها

بالحسن .

— لا تقدر ان تغير خادمتنا كل اسبوع يا بنتي وزمن نيتغي السر والبعد

عن الناس . ولا تقدر ان نعيش هنا بلا خادمة . فاصبري عليها من اجلي

وبعد أيام بعث القسيس هيلانة برسالة الى اجيره في تلحوم فأدتها وجاءت
بالجواب وفي عودتها عرجت على طبريا لتزور امها . وكانت قد ثعلفت
فاخبرتها بما جد في امرها .

- الحق معك يا امي . كنت اظن ان البيت في تلحوم قصر واذا هو
كوخ ، وان الشاب ابن اجير معلمي ظريف واذا به مثل القرد والامراة التي
معه خبيثة شرسة . واظننا ابنته اكرهها من كل قلبي . ضربتني بنت الكلمة
وعيرتني . والله لو لم تكن في تلك الحالة لاختذتها بشعرها ومرغت فمها
بالتراب . لكسرت رأسها والله .

- وهل قرب يوم ولادتها ؟

- لا ادري ، ولكنني سمعته يقول لها ان هذا شهرها . غريبة والله اطوار
هذا الرجل فقد اقام في بيته حاجزاً من الحام ، فانام انا والامراة في شقة منه ،
وينام هو في الشقة الثانية . وما رأيته مرة يقترب منها لا ليلاً ولا نهاراً .
وقد راقبته مرات في الليل وانا اتناوم - يظهر يا امي انها ابنته .

- لا فرق ، ابنته كانت او امراته . فهو يحبها وهو غني أليس كذلك ؟
- بلى .

- اذا ينبغي ان ننتقل من هذا البيت الى حارة اخرى في قلب البلد .
قد دبرت الامر واذا سمعت كلامي عملت بإشارتي ننتمي . ابقى اليوم
عندي تساعدني في النقل . وغداً نعودين الى بيت معلمك .

وفي اليوم الثاني عادت هيلانة تحتفظ بوصية امها وتحصل الى القس

جبرائيل جواب اجبرده في سهل المنير وقد قال فيه انه سافر الى حيفا ويست
هنالك عن عارف فلم يجده ولم يسمع له خبراً .

فمزق الكتاب وملامح الغيظ والقمل تبدو في وجهه .

— واين كنتِ الليلة البارحة ؟

— نمت عند امي .

— حسن . ولكنني اسألك ألا تنفي في هذه الايام ابدأ . لازمي

معلمتك ، ولا تغيظيها بشي . والتي مثلها اليوم تضيق اخلاقها ، فكوفي

طائفة امرها صابرة عليها . أفهتِ ؟ — واعطاها ثلاثة مجيديات .

— نعم . امرك ، سيدي .

— وساعطيك ليرة عندما تلد معلمتك .

— كثر الله خيرك .

وراحت الفتاة الى شغلها . وراح القس جبرائيل يداوي نفسه في الحقول .

وكان الشتاء . وهنذا قد هم بالرحيل ، فصعد في الجبل فوق الحمامات

وجلس على صخرة هنالك بدأت تنطق بجمال الربيع ، فنورت في نغوايها .

به ضرهيرات اخذ القسيس واحدة منها وطلق يقلبها في يده وهو يقرأ في

كتابه المعبوب « كتاب الاقتناء بالمسيح » . ثم نظر الى البحيرة وقد صفى

وجهها وهي نائمة تحت قدميه كالطفل في رابعة النهار والنسيم يهز سريرها

والحمام فوقها يلتحب وينوح ، فهتف سارخاً

— بولي الشتاء . والحمام لا يفتأ ينوح . يسي : الربيع والحمام ينتحب

وينوح . تبسم الطبيعة لهذه الأماكن المقدسة والحمام فيها ينوح . تنيرها الشمس فتدفئها وتحببها وينيرها القمر فيخفي معاصيها والحمام لا يزال ليل نهار يبكي وينوح . فما سرُّ ابها الحمام وما خبرك ؟ أفي نفسك نفس تلاميذ السيد ؟ أفي صوتك صوت المريمات ؟ أفي انتعابك تجسد اصوات الدهور وانين الشعوب ؟ أو هل هو نبأ من انبياء الرب القدوس تردده الايام والانام فيسمعناه في مهد روحياته الحمام ؟ آه ، اواه ! وان في الانسان مهما تقلبت اطوار ، ومهما تغيرت ايامه صوتاً مثل صوت الحمام حياً ابدياً
آه ، اواه ! ان في سرِّ ابها الحمام ، وفي خبرك . ولو تمت غداً اشرف مقاصدي واسماها ، لو تكلم غداً مسعاني في سبيل الفتاة مريم لكان القند اسعد ايامي : ولسمعت مع ذلك نوح الحمام - نوح الحمام في الجليل ونوح الحمام في نفسي . آه ، اواه !

" ارحمني يا رب حسب رحمتك . حسب كثرة رافتك امح معاصي . اغسلني كثيراً من اثمي . ومن خطيئتي طهرني . لاني عارف بمعاصي . وخطيئتي امامي دائماً "

وبينا هو عائد الى البيت زالت سكرته الروحية واحس بنار الجسد تتأجج في صدره فأخفى دخانها نور بره وتقواه وأسمعه اضطرابه صوتاً يقول - قسمت بيميناً ان ارضي هذه الفتاة واصوتها من تصارييف الزمان . وحين ارادها تهتز لها جوارحي كلها . ينسجم لها فؤادي . احبها واكرمها . اودها بعيدة مني قريبة . لحظاتها ذبحت نذري . سكوتها هدم مذهبتي . تأوهاتنا

فَرَطْتُ مَسْبَحَتِي . كَلِمَاتُهَا مَحْتِ اسْمِ اللَّهِ مِنْ كِتَابِ صَلَاتِي . آهْ آوَاهْ !
 إِيْلِيَّاسُ الْبِلَانِ ! إِيْلِيَّاسُ الْبِلَانِ ! إَيْنَ أَفْتُ ؟ عَارِفْ ، عَارِفْ ! إَيْنَ أَفْتُ ؟
 لَوْ عَلِمْتُ الْيَوْمَ أَنَّ إِبَاهَا فِي الْمُنْدِ لَذَهَبْتُ بِهَا إِلَيْهِ . وَلَوْ عَلِمْتُ الْيَوْمَ أَنَّ عَارِفًا
 فِي أَمِيرِكَ لَسَافَرْتُ وَإِبَاهَا إِلَى أَمِيرِكَ . وَلَكِنَّ اللَّهَ وَقَدْ أَخْفَى عَنِّي وَعَنْهُمْ
 الْإِثْنَيْنِ بِرِيْدِهِ أَنْ أَحْمِلَ الْحَمْلَ وَحْدِي . لَتَكْمِلُ مَسِيْنَتُكَ يَا رَبِّ . لَتَكْمِلُ
 مَسِيْنَتُكَ . وَلَكِنَّ الْقَسَّ جِبْرَائِيْلَ عَبْدَكَ أَمَّا هُوَ بِشَرِّ يَا رَبِّي . وَمَنْذُ أَخَذَ يَدَ
 مَرْيَمَ بِيَدِهِ يَوْمَ مَاتَتْ أُمُّهَا سَارَهُ مَا زَالَتْ أَمْوَاجُ الْعُجْبِ وَالْعَقَّةُ تَتَلَاظِمُ حَوْلَ نَفْسِهِ
 « قَدْ سَرَرْتُ بِالْحَقِّ فِي الْبَاطِنِ قَفِي السَّرِيْرَةَ تَعْرِفُنِي حِكْمَةً . طَهَّرَنِي بِالزُّوْفَا
 قَاطِرٍ . اغْسَلَنِي قَايِضُ أَكْثَرِ مِنَ الثَّلَجِ . اسْمَعْنِي سُرُورًا وَفَرَحًا فَتُجْتَبِجَ عَظَامُ
 مَسْحَقَتِي . اسْتَرْ وَجْهَكَ عَنْ خَطَايَايَ وَامْحُ كُلَّ آثَامِي . قَلْبًا نَقِيًّا أَخْلَقَ فِي »
 يَا اللَّهُ وَرُوحًا مُسْتَقِيمًا جَدَّدَ فِي دَاخِلِي . لَا تَطْرَحْنِي مِنْ قَدَامِ وَجْهِكَ وَرُوحَكَ
 الْقُدُّوسَ لَا تَمْرَعَهُ مِنِّي . »

وَلَمْ تَكُنْ مَرْيَمُ أَقَلَّ غَمًّا وَاضْطْرَابًا مِنَ الْقَسِّ جِبْرَائِيْلَ بَلْ كَانَتْ نَفْسُهَا
 تَرْدَدُ دَائِمًا صَدَى تَأْوِهَاتِهِ الْبَشَرِيَّةِ . وَهِيَ فِي بَلَاءٍ أَشَدَّ مِنْ بَلَائِهِ . لِأَنَّهَا
 وَحْدَهَا لَا تَعْرِفُ لِمَنْ تَشْكُو مَصَابِيهَا وَلَا لِمَنْ تَرْفَعُ عَنَابَهَا . الرَّاهِبُ وَصِيْبُهَا
 يَتَأَجَّبُ اللَّهُ فَيَجِدُ فِي يَقْظَاتِهِ الرُّوحِيَّةِ بَعْضَ التَّعْزِيَةِ وَهِيَ تَتَأَجَّبُ نَفْسُهَا فَتَرْدَدُ
 حَسْرَةً وَاحْتِرَاقًا . وَأَنْ قَتَاةً فِي عَمَرِهَا وَمَزَاجِهَا لَقِيَتْ بِأَكْرَأِ أَشَدِّ الْمَحَنِّ وَاحْشَبْهَا
 وَلَمْ تَسْتَيْقِظْ الرُّوحَ فِيهَا لِلْجَدْبَةِ بِعُظْفِ شَيْءٍ عَمَلْفِ الْبَاسِكِ وَبِحَبْرِ بَشَرِيٍّ
 لَا تَشْوِيهِ الْهِيَاتِ الْبَرَّةِ الزَّاهِدِينَ . وَأَمَّا الْقَسُّ جِبْرَائِيْلُ فَكَانَ يَمَازِجُ عَظْفَهُ

وحنانه وارشاده شيء بلبل بال مريم وزاد بحيرتها وعذابها . فلم تدرك سر اضطرابه ولم تحسن فهم ارشاده وعتابه . ولما ألبسها الذخيرة التي اعطته اياها ساره لم يقل لها ان تلك الذخيرة من امها . فظنت الفتاة انها منه وفرحت لذلك . الا ان اقامتها واياه في ذلك البيت تحت سقف واحد وليس بينهما غير حاجز من الخيام ازعجها جداً وكاد يهد قواها . وفوق ذلك لم يكن يأذن لها ان تحدث احداً من الناس او ان تخرج وحدها الى التزهة . فسمت مريم الحياة وضائق صدرها . ولم تكن تجسر ان تحدث القس جيروايل بما يكن فؤادها . ولكن ما بدا في شحوب وجنها وفي ذبول عينيها وفي ضعفها وستها واخلاقتها كان ينطق بافصح بيان بما في اعماق قلبها الكسير . فيسمعه القس جيروايل ساكناً صابراً ، ويلجأ الى الله سوناً لنفسه لا صوناً لنفسها ، وتخفيفاً لالامه لا تخفيفاً لالامها .

وعلى هذه الحال قضت واياه شهري حبها الاخيرين . وفي ذات يوم عند غروب الشمس بينما كان يصلي على شاطئ البحيرة جاءت هيلانة اليه تقول

- معلتي متألمة جداً . فبشها الى البلد تستدعي قابلة .
- اسرعي . خذي العربدة عند الحمامات . وارجمي واياها حالاً .
- فامتثلت هيلانة امره . ولما وصلت الى طبريا ذهبت تواء الى امها
- الليلة . الليلة .
- طيب . وهل استدعيتم القابلة

— أنا ذاهبة الآن اليها —

— حسن . عند القبور بعد ساعة او ساعتين ولا تنسي ما قلت لك .
تشجمي وتيقظي وكوني رشيقة وشاطرة
وفي تلك الليلة ولدت مريم بعد طويل العذاب وشديد الالم طفلاً ذكراً .
وكان القس جبرائيل ينتظر على شاطئ البحيرة خلاصها . فجاءت هيلانه
تبشره بذلك . ثم سارعت الى جهة القبور فكلمت شخصاً واقفاً هناك تقول —
بعد ساعتين . اجيئك بعد ساعتين .

وفي الساعة الثانية بعد نصف الليل ، وقد كانت القابلة انجزت عملها
ونامت ، وكانت مريم والطفل والقسيس نياماً كذلك ، نهضت هيلانه
تسلل الى فراش القابلة فاخذت الطفل من جانبها فاستفاق باكياً . فاستفاقت
لبكائه القابلة . فظاهرت هيلانه بانها تريته وتطاييه لينام . ثم عادت الى
فراشها تتقرب الفرسه ونهضت بعد نصف ساعة فحملت الطفل النائم واسرعت
به الى الشخص الذي كان ينتظرها عند القبور وعادت الى فراشها فنامت
ناعمة البال نومة البررة الاطهار .

ونهض القس جبرائيل باكراً صباح ذاك اليوم فدخل على مريم ليبشرها
ويشاهد ولدها . وكانت النساء الثلاث لم يزلن نائمات فايتمط القابلة
وسألها عن الطفل . فنظرت حولها يمينا ويساراً ثم نهضت تصفق كفاً على
الكف وتصيح . فاستكثها القسيس وايقظ الحادمة هيلانه وما كاد يتم سوءه
حتى اخذت تبكي وتقسم بالله وبالانبياء . فاستدعا الاثنين الى الخارج خوفاً

ان يوقف لقطعهما مريم فتعلم بالمجاذبة فيجوز عليها
 - لما عدت انا الى البيت يا هيلانه كان الباب مفتوحاً وكنت
 انت خارجاً .
 - نعم سيدي .
 - وهل اقلت الباب عند رجوعك .
 - لا . تركته مفتوحاً حسب العادة . والله يبليني ويضربني بالسبع
 ضربات اذا كنت -
 قاوماً بيده ان اسكتني . واوعز اليها والى القابلة ان يقولوا لمريم ان ولدها
 عند المرضعة في البلد ترضعه الى ان تتعافى .
 وراح يسرع الى الحمامات مشئت الفكر مضطرب البال

